

## مررت باننا

(١٢٣٨ - ١٣٠١ هـ) (١٨٢٢ - ١٨٨٣ م)

وهذا مصلح آخر من جنس آخر ؛ محمد بن عبد الوهاب مصلح ديني ، وهذا مصلح اجتماعي ؛ ذاك في نجد ، وهذا في استنبول ؛ ذاك لاشان له بالسياسة ولا المدنية الحديثة ، إنما هم إصلاح العقيدة ؛ وهذا منعس في السياسة لامشكلة أمامه غيرها ؛ ذلك برنامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسول ﷺ وصحابته لنعتمد ما يعتقدون ، ونعمل ما يعملون ، ونترك ما يتركون ؛ وهذا يرى الإصلاح في الرجوع إلى المدنية الحاضرة ومناهجها في الأمم الحية لنختار منها ما يصلح لنا ويتفق وموافقنا ، دارسين في إيمان كيف شق الأوربيون طريقة لهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكيف تعثروا وكيف نهضوا ، فتعلم من خطئهم وصوابهم ، ومنتبس خير ما أنتجته عقولهم .

\* \* \*

لقد ولد في عهد السلطان محمود ، ونضج شبابه في عهد السلطان عبد الحميد ، وبدأت كهولته في عصر عبد العزيز ، وانتهت في عهد عبد الحميد .  
جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية ، وحركة الجزرتلي حركة المد ، والملكة تنقص من أطرافها ، ويدب الفساد في داخلها .

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء ، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح في هدوء وإشفاق ، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم ، وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل في شؤون الدولة بدعوى حمايتهم ، والعمل على تحريرهم ،



مدحت باشا

فأصبحت الدولة وكل يوم تُقتطع منها ممالك ، وكل يوم تُعقد معاهدات تنقص حقوقها وتُفرض عليها بالتهديد والوعيد .

حكام في كل ولاية يحكمون البلاد بمقول ضيقة وشهوات واسعة ، ترآف في المظهر ، وسخف في الخبر ؛ لا يقيدم قانون ، ولا يردعهم عدل ، ولا يرون للشعوب حقاً إلا أن تؤمر فتطيع ، وتنتهب فتصبر ؛ بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة ، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم ، فن امتعض من ذلك فهو ثائر ، ومن شكا فهو كافر ؛ فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإيائهم ، والذل والهوان عند من لصق بأرضه .

لا عناية بصحة ولا تعليم ، فالأمراض فاشية ، والجهل عميم ، والمسلمون في ذلك أسوأ حالا من المسيحيين ، لأن الجمعيات المسيحية في الأمم الغربية تعين مسيحيي الشرق بفتح المدارس لهم ، ونشر التعليم بينهم ، والمسلمون حائرون بين إقدام على التعلم في هذه المدارس مع التعرض لما يمس دينهم ، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بمجملهم .

والفقر ضارب أطنابه<sup>(١)</sup> بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال ، فلا زراعة صالحة ، ولا صناعة ناجحة ، فهذه كلها تدار بيد أضعفها الفقر ، وعقل أضره الجهل ، وعقيدة أفسدها التخريف ؛ ثم عدم أكثرات الناس لما تنتجها أيديهم وأرضهم ، إذ ليس يحميه عدل حكامهم .

الجنود في الدولة لا تزال قوية شجاعة على رغم كل ذلك ، تحتقر الموت وتستعذبه ؛ وحالتها المعنوية عالية رفيعة ، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث ، ولا نظام في الإمداد بالآلات والعدد والغذاء ؛ فإن انتصروا في بعض المواقع فبفضل قوة إيمانهم وسموروحهم ، وعلى الرغم من سوء تغذيتهم ، وضعف عدتهم .

(١) ضارب أطنابه : مطبق . والأطناب : جبال الحيمة .

وتلك حال لا تبشر بخير دائم . والأم الحية حولم كل يوم تُعدّ جديداً من الآلات ، وتستكمل نقصاً في النظام ، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة في الظفر بالأعداء ؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور في مجراها المتيق ؟

وهذه الدول من حولها أحست ضعفها ، وشعرت بدنواؤها ، فهي كل يوم تنصب الشباك حولها ، وتتقن صنعها في دقة ومهارة ، ولكل دولة أساليبها في الحباثل ، وطرقها في الصيد ، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالاتهم عيونها وعُدتها ووسائلها .  
والمملكة خليط من عناصر شتى يختلف جنسها ، وتختلف لغتها ، ويختلف دينها ، ولكل عنصر هوى ، ولكل جنس أسباب متصلة بأمر أخرى تستهويها وتستنجدها .

فلا المالية سالحة ، ولا الإدارة سالحة ، ولا الجيش صالح ، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام .

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء ناقماً على الحالة التي وصلت إليها الأمة ، وانتقد أخاه عبد المجيد في تصرفاته ، وفي إسرافه في شهواته ، وفي تبيذره المال ، وعدم نظره إلى شؤون الدولة كما ينظر إلى نفسه ، فأعلن أنه آت لإصلاح المفاسد ، والأخذ بيد الشعب ، والاقتران على زوجة واحدة ، والاقتصاد في نفقات الحريم ، ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود ، وخطأ في سبيل البذخ<sup>(١)</sup> والترف والنعم والإسراف أضاع ما كان ينتقده من أخيه ! وارتكب في عهده غلطتين كبيرتين : تقويته عواطف رعاياه المسلمين في أنهم أولى بالترفضيل في مزايا الدولة في المعاملة والمناصب ونحو ذلك ، وأن ليس يصح أن يساويهم رعاياه للمسيحيون في ذلك ، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عناصر الأمة الواحدة ، ومهد الطريق للدول الأوربية أن تتدخل في حماية أهل دينها .

(١) البذخ : التعاطم .

والغلطة الثانية : وقوعه في الدين من المصارف الأجنبية لقلّة دخل الدولة وكثرة إسرافه . نعم ، إن بعض هذا المال أنفق في إصلاح الجند والبحرية ، ولكن كثيراً منه أنفق في بناء قصوره الكثيرة الفخمة وما تحوى من أسباب الترف والنعيم — مع أنه لما أراد سعيد باشا والى مصر الاستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التي يمكن أن تقال في سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالمالك — فكان هذا أيضاً وسيلة من وسائل التدخل الأجنبي ؛ هذا إلى اعتداده بنفسه ، واستبداده برأيه ، وتركيز أعمال الحكومة كلها في شخصه ؛ فهو مرجع كل شيء ، لا يسمع نصيحة ناصح ، ولا رأى مجرب ، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور ، لأنها كلها تؤدي إلى مراقبة أعماله ومحاسبتها على إسرافه .

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد في الطُنبور نعمة بل نعمات ؛ لقد لعب خوفه على شخصه برأسه ، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خُلعوا أو قتلوا ، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قتل ، فليحذر أن يُمثّل به هذا الدور ؛ ثم ذكاء نادر ، ومال كثير ، وسلطان كبير ، كل هذا يوجّه للمحافظة على شخصه أن يُمس بسوء ، فلا تذكر الملة والأمة في الصحف والمجلات ، بل تذكر «الذات الشاهانية» متوجة بالألقاب الضخمة الفخمة ، فهو السلطان الأعظم ، والخالقان الأفخم ، وسلطان البرين والبحرين ، وإمام الحرمين الشريفين ؛ وهو ظل الله في أرضه ، المحفوف بالطافه الصمدانية ، وعنايته الربانية .

ويصادر الكتاب إذا كان فيه « الأئمة من قريش » . وتمنع « العقائد النسفية » من الطبع لأن فيها فصلا في الإمامة وشروط الخلافة ؛ وكل كتاب يطبع في الشام أو العراق أو الآستانة لا بد له من « رخصة جليّة » ؛ ويجمع كتاب كان يدرس في « مكتب الحقوق » ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها

أنه إذا اختلفت دولة من الدول يكون للدولة المجاورة الحق في طلب إصلاحها .  
وخطيب الجمعة يتحرى الحديث الذي يذكره في الخطبة ، فلا يكون مما ينهى  
عن ظلم ، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع ، ولا نحو ذلك ؛ ولذلك يغلب أن  
يكون الحديث : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والجواسيس لا عِدَاد لها ، والجاسوسية سبيل الارتقاء ، وعشرة آلاف  
جندي يتفنون للمحافظة على حياة السلطان وإظهار أبهته وجلاله إذا خرج  
للمصلاة يوم الجمعة ، والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ ، يفتنون  
رؤيا يزعمون أنهم رأوها ، أو يفسرون حلما ، أو يوقعون بمن يقف في سبيل  
دجلهم . والأمور تدار ، والمشاكل السياسية تحل ، بمثل هذه الرؤى ، وآراء  
هؤلاء الطغاة<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

في هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات .  
ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها ! فأنفاسه معدودة عليه ، وحركاته  
وسكناته تسجلها الجواسيس . وهم لا يكتفون بما يعمل ، بل يزيدون عليه ما لم  
يعمل . ويؤولون ما يصدر عنه تأويلا يزيد في ربحهم وقرابهم . يخلص في عمله  
فيقال إنه يرمى إلى أخطر غاية ، ويُعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكائد ، ويبعد  
لعمل خارج العاصمة فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايته ، ويعمل للدستور  
فيقال إنه يريد لها جمهورية ؛ وهكذا وهكذا . في كل خطوة عقبه ، وفي كل  
فكرة وساوس ، وفي كل حركة دسائس ؛ وليس يحتمل مثل هذا إلا أولوالعزم  
الذين يدأبون مهما عذّبوا ، ويعملون مهما اضطهدوا ؛ عقيدة تملكهم أنهم  
ليسوا ملكا لأنفسهم ولا لأسرتهم ، إنما هم ملك لفكرة استحوذت عليهم .

(١) الطغاة : ضماف المقول .

ومبدأ غمر مشاعرهم ؛ أما غيرهم فسرعان ما يعودون من منتصف الطريق ،  
سائلين الله السلامة ، مكفين بأول عذاب نالهم ليستربح ضميرهم ، ويلقوا التبعة  
على سواهم . وكان مدحت من هؤلاء الذين في خلقتهم حمية ، وفي طبعهم تحدي  
للشر ، وثبات على الجهاد ، وجلد على تحمل الألم حتى يلفظ آخر أنفاسه وعار  
عليه أن يتأوه .

\* \* \*

ولد مدحت في استانبول ؛ وكان أبوه « الحاج حافظ محمد أشرف » عالماً  
دينيّاً تولى بعض أيامه القضاء الشرعى في بعض الولايات . فأنشأه أبوه تنشئة  
دينية ، فحفظه القرآن وهو في العاشرة ، ولقب بالحافظ ، وهو لقب لكل من  
يحفظ القرآن من الأتراك ، فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق ؛ أما مدحت الذى غلب  
عليه فهو اسم ديوانى . والتحق بالديوان الهيايونى يتعلم الخط الديوانى ، وتنقل مع  
والده في الولايات التى تولى فيها القضاء يتعلم في مكاتبها ؛ حتى إذا عاد والده  
إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتابة ويتعلم منهم بعض الوقت ؛  
والبعض الآخر يقضيه في جامع الفاتح ، وكانت فيه حلقات الدروس تشبه حلقات  
الأزهر ، لكل شيخ حلقة وتلاميذه . فكان يتعلم هناك اللغة العربية والفارسية  
والدروس الدينية والنحو والنطق والفقہ والبلاغة والفلسفة التى كانت تسمى الحكمة ؛  
وظل على هذه الحال إلى أن ناهز العشرين ، تلميذاً في دواوين الحكومة وتلميذاً  
في جامع الفاتح .

وهى ثقافة — كما ترى — ضعيفة ، فلا تاريخ ولا جغرافية ولا رياضة ولا لغة  
أجنبية ، ولكن قد يعلم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلمه المدارس النظامية  
والبرامج الثقافية ، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافى إذا كبر فيطالع بنفسه الكتب .  
ولما جاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة الثقافية والسياسية ماسة إلى تعلم لغة

أجنبية ، فتعلم اللغة الفرنسية ، فكان يدرسها وهو يشتغل في ( وظيفته ) .  
وشيء آخر أفاده فائدة كبرى في ثقافته العملية ، وهو سياحته في أوربة لدرس  
النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها ، وعالجت بها أمثال الفساد  
التي تعانيها تركيا ؛ فحصل على رخصة للسفر سنة ١٢٧٤ وسنه إذ ذاك نحو  
ست وثلاثين ، فأنفق في سياحته هذه نحو ستة أشهر ، زار فيها باريس ، ولندن ،  
وفينا ، وبلجيكا ؛ وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع ؛ كيف تنظم الدول ماليتها ،  
وكيف تسوس أمورها ، وما نظام الحكم فيها ، وما علاقة شعوبها بملوكها ، وما أهم  
وسائل العمران عندهم ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي ملأت ذهنه ، وأراد أن  
يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها — وفي الوقت عينه أراد من سياحته أن  
يتقن اللغة الفرنسية التي تعلمها على كبر ، فتم له ما أراد بعقله المتفتح ، وهمة العالية ،  
واستقامته التي أخذها عن دينه .

ولذلك كان مزيجاً غريباً ؛ محافظةً على الصلاة وسُبحة ، ومعرفةً بشؤون  
الدنيا ، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة ، ودرؤشة ويقظة .  
أول ما لفت الأنظار إليه في تركيا أنه شبّ صريحاً لا يتقن فن الجمالة ،  
حاداً لا يكظم ، حاراً في تنفيذ ما رأى في وسط بارد بطن ، مخلصاً لفكرته ، على  
حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه ؛ تربي في مدرسة كبرلى باشا ورشيد  
باشا وعالى باشا ، وتعلم منهم القوة والتصميم ، والقدرة على التنفيذ ؛ فلما خلفهم من  
لا يملأ كراسيهم اصطدم بهم . تولى محمد باشا القبرصلى « صدرأ أعظم » ، وكان  
بينه وبين مدحت إحن وأحقاد ، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك في البلقان ،  
واحتاجت إلى رجل شديد ، فرماها القبرصلى باشا بمدحت . لعله يفشل أو يُقتل  
فيستريح منه ، وإن نجح فلا بأس ، فأقل ما في الأمر أنه أبعده عن وجهه .  
فسافر مدحت ومعه قوة عسكرية ، وقضى ستة أشهر في قم الجبال ومغاورها يقبض

على أشقيائها ، وأثبت إداثة أربعة منهم وأعدمهم ، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الآستانة ، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصلاح ، فكان ذلك مما لفت الأنظار إلى قوته وحرمة .

كما لفت الأنظار إلى حسن إدارته عندما عين والياً في الصرب وبلغاريا ، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقاً ، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين : بث المدارس في أنحاء الولاية ، وأنشأ المستشفيات ، وأصلح من الطرق نحو ألفي ميل ، وبنى نحو ١٤٠٠ جسر ، فإذا أعوزه المال الرسمي حرض الأهالي على التبرع فأجابوه ، بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح في تحسين حالهم ؛ وأم ما تمتاز به إدارته — مما كان جديداً في نظر العثمانيين — عدم تفرقة في سياسته وإدارته وعدله بين مسلم ومسيحي ، ثم شدته المتناهية على العصابة ومثیری الدسائس ، ومعاقبته لهم بما يؤمن البريء ، ويردع المسيء ؛ فأصبحت بفضل هذه المقاطعة على فقرها وكثرة فتنها مضرب المثل في الغنى والأمن أيام حكمه من غير أن يكلف الدولة مالا . كل هذا كان إرهاباً<sup>(١)</sup> بما سيكون ، إذا أسندت إليه شئون الدولة .

إن ضعف الدولة العثمانية الذي ذكرنا ، وعدم كفاية السلاطين المتأخرين ، صجبهما مشا كل في منتهى التعقيد ، فعناصر الدولة متعددة ، ويكفي البلقان وحده — بما يشمل من البوسنة والمهرسك وسربيا وألبانيا واليونان وبلغاريا ورومانيا — وما يقطن فيه من أم كثيرة متناقضة المطالب أن يقض مضجع أية دولة مهما بلغت من القوة ، وخاصةً بعد ما جاءت عدوى القومية فأثارت نوازع كل عنصر من هذه العناصر نحو الاستقلال ، فكيف بالدولة العثمانية ، وكيف ذلك مع الأعياب

(١) إرهاب : علامة ودلالة .

الدول المختلفة وإثارتها لهذه العناصر؟ هذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهى . فنشأ عن هذا كله ما سمي « المسألة الشرقية » ويعنون بها « النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة ، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى » .

وسواء الحالة الداخلية والحالة الخارجية يتمخض — عادة — عن عدد من المفكرين في هذه المشاكل، يقترحون فيها ما يرون من ضروب الإصلاح؛ ومن هذا نشأت أنواع من الإصلاح متسلسلة تسمى في عرف الأتراك « التنظيمات الخيرية » ويريدون بها الإصلاحات التي يراد بها إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها ، وعلاج مشاكلها في الداخل والخارج ، من عهد السلطان محمود . وكان من أشهر هذه الإصلاحات أو التنظيمات القانونية المعروف بخط « كلخانه » الذي صدر سنة ١٩٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد ، والذي سعى إليه محمد أمين عالي باشا ، وكان أمم ما يتضمن هذا « الخط » حماية النفس والملكية من غير تفرقة بين جنس أودين ، وإلغاء نظام الالتزام ، ومساواة الرعايا مهما اختلف دينهم أمام القانون ، وأن جميع المجرمين يجب أن يحاكموا محاكمة علنية ، والمساواة في الفرص أمام الجميع لتولي الأعمال الحكومية ، وتجنيد غير المسلمين مع المسلمين ، وإصلاح الإدارة والشرطة والضرائب والطرق ، وإنشاء المصارف إلخ .

ولكن هذه الإصلاحات كان يعترض تنفيذها صعوبات جمة : أهمها السلطان — وأكثر السلاطين كان يرى أن هذه الإصلاحات تحد من إرادته — ورجال الدين لغضبهم على التشريع المدني ، وبعض الرعايا الأجانب لأن هذه المساواة تحرمهم امتيازاتهم القديمة ، وبعض الدول الأجنبية لأنها لا يسرها أن تصلح الدولة . فكانت كل « التنظيمات » التي توضع لا تلبث أن تصبح حبراً على ورق .

وفي هذا الوسط الشائك جدًا حاول مدحت باشا أن يضع إصلاحه ، فرأى أن الإصلاح الذي يجب أن يسود المملكة العثمانية هو الحكم الديمقراطي على نمط ما رأى في إنجلترا وفرنسا ، ومظهر هذا الحكم هو الدستور ، وإنشاء المجالس النيابية ، وتمثيل كل عنصر من عناصر الدولة وكل قطر من أقطارها في هذه المجالس ؛ وبعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازه والمقربين إليه الذين يخدمون أغراضهم ومصالحهم .

كان يرى أن كل الأمم الأوربية مرت بهذا الدور الذي تمر به الدولة العثمانية ، ولم يتخذها إلا الحرية ، فهي التي تربي الأمم ، وتحبي النفوس ، وترد للمرء حقوقه وتُشعره بشخصيته ، وتضمن له العدل ؛ والحرية هي التي تُؤلد الدستور الذي يبيث الطمأنينة بين أفراد الأمة ، ويسوى بين الأفراد على اختلاف دينها وعناصرها فيؤلف بين قلوبها ، وهو الذي يتيح الفرص لكل كُفء قادر ، ويسد الطريق أمام كل دسّاس ماكر .

تقد عانت إنجلترا وفرنسا ما نعانى ، ووقع على أفرادها الظلم كما يقع علينا ، ولكنها نجت من ذلك كله بتحرير شعوبها ، ووضع دساتيرها ، والحزم في السير عليها ؛ ذلك حال إنجلترا قبل دستورها وبعده ، وحال فرنسا قبل ثورتها وبعدها ، هدموا الاستبداد ، وأحلوا محله حياة الحرية الصحيحة ، فلو فعلنا ذلك وأعلن السلطان الدستور ، وسرنا عليه في حزم لا تنظمت إدارتنا وماليتنا ، وشعرت عناصر الدولة المختلفة بالتساوى بينها ومشاركتها في الحكم وتحقيق العدل فاطمأنت ، ولو فعلنا ذلك لم تجرد الدول المختلفة وسيلة للتدخل في شؤوننا فكفّت يدها ، وإذا تدخلت ظهر تعنتها فلم تجرد رأياً عامًا يُساندها — بهذا الدستور يصبح الحكام في كل ولاية مسئولين أمام البرلمان ، وبعبارة أخرى أمام الأمة ، فيفتح الحاكم عينه ، ويحدّ من شهوته ، ويتحرى العدل ، وإلا طار من منصبه .

الدستور علم ينشر بين الشعب ، وغنى يسبب طمأنينة الشعب ، وعدل بين أفراد الشعب ، ويقظة للرأى العام ، وتفتح للملكات ، ونشاط للقدر التى كتبها الاستبداد .

فلا حياة للدولة العثمانية إلا بدراسة النظم الديمقراطية فى الأمم الأوربية ، واختيار أنسبها مما يتفق وحالة الدولة وظروفها ومركزها ، ثم سنّ تشريع لها ، ثم إحاطته بسياج من القوة حتى لا تتلاعب به أيدي العابثين المفسدين . إلى هذا انتهى مدحت بعد طول درسه وتفكيره وتقليبه وجوه الإصلاح المختلفة .

لم يكن مدحت باشا وحده هو الذى يفكر هذا التفكير ، بل كان حوله شباب أحسن إحساسه وشعر شعوره ، وأنكر الاستبداد ، وحاول الخلاص منه ، وعكف على قراءة التاريخ والسياسة ، والنظم الأوربية ، ووجدت جمعية فى باريس على رأسها مصطفى باشا فاضل تنقذ الدولة العثمانية ، ونظام الحكم فيها ، وتجاهد فى طلب الإصلاح . ومصطفى فاضل هو صاحب الكتاب المفتوح المشهور الذى ترجمه فتحى زغلول باشا « من أمير إلى سلطان » والأمير هو مصطفى فاضل هذا ، والسلطان هو السلطان عبد العزيز ، والكتاب هو أول كتاب من نوعه يوجه أمير عثمانى إلى السلطان فى مثل هذه الصراحة والقوة .

كان رأس هذه الحركة وعقلها المفكر وحكيمها الرزين هو مدحت باشا . وجاء دور التنفيذ ، يريد مدحت باشا ورجاله وشبابه الحكم الديمقراطى والدستور والحرية ويصطدمون بالسلطان عبد العزيز وحاشيته وأعوانه ، فهم لا يريدون ذلك - يرى مدحت أن لا أمل للحياة إلا بالشورى ، ويرى عبد العزيز أن الشورى تسلبه سلطانه ؛ يرى مدحت أن الدستور لا بد منه ، فهو يهيد إلى الأمة حقها فى الإشراف على الحكم ، ويضمن العدل والمساواة ، ويبعث

الإخاء ، ويحسى الأمة من شهوات الأمراء والسلاطين ، ويوحد بين عناصر الأمة المختلفة ؛ ويرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين وبعض رجال السياسة أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها وعدم التجانس ، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الأمم التي ترتبط بها ، وعدم بلوغ الأمة حدًا من العلم يهيئها لهذا الحكم وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية إلخ .

إذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره ، وانجلي الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يمدد السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله في المصلحة العامة وأكثره في شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعتمدين من رجال الدين قد اشترت ذمهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يُسمون كل حركة تدعو إلى الإصلاح فتنه ، ويقولون : سلطان غشوم<sup>(١)</sup> خير من فتنه تدوم .

وكان لكل معسكر أيضاً أديباؤه وكتابه وشعراؤه ، فع مدحت باشا كتاب من الطبقة الأولى يحررون في الصحف الفرنسية والتركية والعربية . وأبدع « نامق كال » أدبا تركيا يتغنى بالحرية في أسلوب جديد ، جميل في بساطة ، واضح في قوة ؛ وأدب آخر رجعي يُشيدُ بذكر السلطان ويهجو دعاة الحرية والإصلاح ، ومنهم صاحب جريدة « الجوائب » وكتابها .

والدول الأوربية نفسها تدخل في هذا المعترك ؛ فإنجلترا تمطف على مدحت لأنها بحكم نظامها تميل إلى الديمقراطية وإلى الدستور ، ولأن في صلاح تركيا

(١) غشوم : ظالم .

وهدونها ما يعوق مطامع روسيا ؛ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها في تركيا « إيفناتيف » يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع روسيا إذ ذلك .

ويركز مدحت برنابجه في كلمات فيقول : « إن التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا نطاق ، فنظارة المالية ترسل الأموال إلى المايين ، فيصرفها السلطان في ملذاته ، والنظار يبيعون الوظائف ببيع السلع ؛ فالوالى يشتري وظيفة من الصدر الأعظم ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم ، حتى خربت الولايات ، ووقعت الدولة في أزمة شديدة ، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية ، وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابى ، وجعل النظار مسئولين أمامه ، وأن يكون هذا المجلس قومياً ، فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر — وأن يوضع الولاية في الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يمشوا بمصالح الرعية » .

كل هذه المعانى تركزت في كلمة واحدة اسمها « الدستور » .

ها هي الدعوة تنتشر ، والنفوس تغلى ، وأخطاء السلطان عبد العزيز المتتابعة تزيدها غلياناً .

تحت ضغط الحوادث أبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم ، حبيب السلطان عبد العزيز لأنه يمدده بما شاء من أموال الدولة ، وحبيب الحاشية كذلك ، وحبيب سفير روسيا في الأستانة ، وحبيب ذوى المناصب من رجال الدين ؛ وعين مدحت باشا صدرأ أعظم ، وهو المكروه من كل هؤلاء ، والمحجوب من الطائفة التى تغلى لطلب الإصلاح .

فما استقر على كرسيه حتى أعاد المنفيين الذين نُفوا لاتهمهم بمشايعة حركة الإصلاح ، وأعاد تأسيس ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صورى كما فعل محمد نديم ، وضيق على السلطان عبد العزيز وحاشيته فلم يمدّم بالمال الذى يشتهون ، وبت في المشاكل الخارجية بما أصلحها ، وتوجّه إلى الإصلاحات

الداخلية فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة ، فوضع مشروع خط حديدي يربط العراق بالدولة بإنشاء خط بين بغداد وطرابلس الشام . واختار مهندساً فرنسياً لذلك كلفه وضع المشروع وتخطيطه واكتشاف أقرب طريق إلى ذلك ، ورسم الخرائط له في نظير مائتي ألف ليرة ، ودبر المال لذلك المشروع بالاتفاق مع إنجلترا على دفع ثلاثة ملايين من الليرات في نظير نقل بريد الهند على هذا الخط ، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية في بلاد الحجاز ، وإنشاء طريق حديدي بين دمشق وبغداد ، ومد الأسلاك التلغرافية بين دمشق والحجاز واليمن ، وفعلاً أحضرت الخشب والأدوات لإنشاء خط بين القدس وجدة ، ورأى أن ذلك لا يكلف الدولة كثيراً ، فتلغرافات الحجاج تعوض النفقات في سنين قلائل .

ووضع السكايل والموازن على أساس عَشْرِي ، ووحدتها بين أجزاء الدولة ، وعارض أشد المعارضة في منح الخديو إسماعيل باشا فرماناً يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية وقال : « إنه إذا أبيع له ذلك تدخل الأجانب في شؤون القطر المصري ، وضاع استقلاله الإداري والسياسي معاً ، وتدخل الأجانب يوماً ما في شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم » ، فعل هذا مع أن السلطان كان قد وعد إسماعيل باشا بإصدار هذا فرمان .

نَمَطٌ (١) جديد في الوزارة لم يألفه عبد العزيز ، فقد ألف أن طاعته غنم وإشارته حُكْم . ولذلك لم يلبث مدحت في الوزارة إلا خمسة وسبعين يوماً اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته ، وخسرت الحكومة مائتي ألف ليرة للمهندس الفرنسي واضع مشروع خط بغداد من غير أن تستفيد شيئاً .

ثم رأيناه وزيراً للعدل في وزارة أسعد باشا ، ثم في وزارة شرواني زاده

(١) النمط : المذهب والنوع .

محمد رشدي باشا ، فكنته هذه الوزارة الأخيرة أن يعكف على وضع النظم  
واللوائح لإصلاح الدولة .

وكتب مدحت إلى عبد العزيز كتاباً ليناً في مظهره شديداً في جوهره ، قال فيه :  
« لقد صرحتم جلالتم في خطاب العرش بأنكم تلتزمون خطة الإصلاح المنشود ، ومع  
هذا فقد ساء الحال ، وأنتجت كثرة تغيير موظفي الدولة القلقة والاضطراب ، وضل  
أكثرهم الطريق ، ولم يسيروا وفق مقصدكم ، بل خرجوا عن جادة<sup>(١)</sup> الاستقامة  
وأفسدوا ما أحدثه الإصلاح ، واختلت مالية البلاد ، وحداً ذلك بالناس إلى نشر  
الأراجيف<sup>(٢)</sup> في داخل البلاد وخارجها ، وخاف الناس أن ينتج هذا انقراض الدولة .  
« وقد اضطررتنا وطينتنا إلى عدم السكوت والوقوع فيما لا تُحمد عقباه ،  
فلجأنا إلى أعتابكم الشاهانية . . . ولا يخفى على حكمة جلالتم أن الدواء الشافي  
لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التي نعرفها حق المعرفة ، فإذا أزيلت الأسباب زال  
المرض . . . فإذا أصدرتم خطأً هائولاً جديداً حَتَمْتُمْ به اتباع القوانين والنظم  
والمساواة بين الغني والفقير والكبير والصغير في نظر القانون ، وأرجعتم المنشآت  
الخيرية إلى أصلها ( وكان السلطان استولى عليها ) ، وصرقتم الأموال في سبيل  
ما خصصها له الواقفون ، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالي ( الوزراء )  
فبقر قراراته ويعرضها على جلالتم ، ولم تستأثروا جلالتم بشيء من حقوق  
الدولة المالية والملكية ولم تصرف المالية قرشاً واحداً إلا برأى الباب العالي ،  
وحُدِّدَتْ وظائف كبار الموظفين وأصاغهم ! وجُعِلَ الوزراء مسئولين عن نتائج  
أعمالهم ، وحتَمْتُمْ ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم — إذا تم ذلك كله  
حصلت النتيجة المطلوبة بعون الله تعالى ، ووصلت الدولة إلى الطريق الذي  
ترجوه جلالتم .

(١) الجادة : الطريق . (٢) الأراجيف : الأخبار الكاذبة السيئة .

هذه الأقوال هي نتيجة أفكارنا ، وربما أخطأنا ... ونحن نطلب من جلالتيكم  
تخليص الأمة — التي قد أصبحت مصالحتها بين يديكم — من أزمته الحاضرة .  
وعلى كل حال فالرأى لكم .

في هذا الكتاب مجمل أفكار مدحت باشا ونظرتة إلى الإصلاح .

أعد مدحت باشا هذا التقرير وهو وزير العدل ، وعرضه على الوزراء فاتفقت  
كلمتهم عليه ، واتفقوا على أن يرفعه الرئيس إلى السلطان عبد العزيز ، فقبله ولم  
يستطع أن يفاجئه ، فحدث السلطان أحاديث مختلفة ثم تدرج إلى ذكر هذا  
الكتاب ، فلما سمع كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاج هائجه ، وأصدر أمره  
في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة ، وإبعاده بصينته والياً لسلانيك ؛ وبعد  
أيام عزل شرواني وعينه والياً لحلب ، وبذلك أبعده الاثنان اللذين يذكران  
الإصلاح . ولم يمكث مدحت طويلاً في سلانيك فعزل بعد ثلاثة أشهر ، وأخذ  
يصلح في مزرعته ، ويفكر في أمته .

هذا مدحت باشا — في مزرعته — يفكر ، كل محاولته في الإصلاح ضاعت  
سُدَى ، لصلافة السلطان عبد العزيز الذي يأبى أن يسمع كلمات « الشورى ،  
والدستور ، والعدل ، والحرية ، والأمة » ؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان  
عُرْضَةً للنفي والتشريد والقتل والعزل كما حدث له .

إن السبب الوحيد لتدمير المسيحيين في الدولة هو فقدانهم الحرية ، فتمت  
منحوها عطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها .

وسبب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية ، فتمت شعروا بجزئتهم أقدموا على  
عملهم ونشطوا ، وكسبوا ، وتعلموا ، واستخدموا ذكاهم ومواهبهم لإسماد أنفسهم  
وأسرتههم وهيئتهم الاجتماعية .

وفقدان الجميع الحرية يملؤهم خوفاً ، ويقدم رجوتهم ويخلفهم بأخلاق العبيد : من قلة وضعة ، وعدم التفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أحسن الطرق . وليس الذي وقعنا فيه من طبيعة الإسلام في شيء ، فالإسلام يسوي بين الغني والفقير في الحقوق والواجبات ، وبين الوزير وراعي الغنم ، ويجعل أمرهم بينهم شوري ؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشوري كما يكره الموت . والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر .

إن الشورى الإسلامية نظمت في العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل في المدينة الحديثة بجزئية الصحف في النقد ، وحرية الأفراد والجماعات في التأليف ، وإبداء الآراء في صراحة ، يستحسنون ما يرون ، ويستنكرون ما يرون ، ويخطبون كما يشاءون . فلا أحد معصوم ، ولا الحكومة معصومة ، ولا الوالي معصوم ، وإنما الذي يقوّمهم ويخينهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأي العام وحرية في النقد ، وهذا هو ما سُمي في القرآن : بالتواصي بالحق . كل هذا واضح جلي ولا بد منه ، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هي الصخرة التي تتكسر عندها كل هذه الآراء .

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض في العالم ، وهي مع ذلك أفقر أرض لهجرة كثير من أهلها بالظلم ، وإثقال كاهل من بقي بالضرائب . ولا شركات ، ولا مصانع ؛ فالقطن كثير في البلاد ومع هذا فالمنسوجات القطنية تجلب من أوردية ، حتى الطرايش التي نضعها على رؤوسنا ، وعلب الكبريت التي نُشعل بها نيراننا نجلبها من الخارج ؛ وكل المواد الأساسية متوافرة عندنا ، ولكن لا عدل ولا أمن على المال ، فلا شركات ولا صناعات . ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة ، والمحاكم العادلة ، وهذه لا تكون إلا بالحرية ، أي الدستور . كل من جاهر بالإصلاح

أبعد ؛ ففؤاد باشا مات محترماً مهيناً ، وعلى باشا دُست له الدسائس حتى عزل من منصبه ، ومهما ما هما في الكفاية والاستقامة ؛ وإنما يقرب أمثال محمود نديم الشرير الجاهل الذي يقدم مال الدولة للسلطان ، ثم ينتهب لنفسه ما نالت به يده .  
رحم الله فؤاد باشا وعلى باشا ، فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولها في الإصلاح ، ففكرا في حيلة لطيفة : أن يشوقا السلطان عبد العزيز لزيارة أوربة ، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوربية فيبيننا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم ، ويشعراه من طَرْفٍ خفيٍّ بأن سبب هذا كله حُسن الإدارة وصلاحية الحكم ، لعله إذا عاد تحفّزت نفسه لحسن التقليد ، فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح ، وسار في أموره غير سيرته ، والتفت إلى رعيته ، ولكن خاب فالهما فقد عاد أشد إسرافاً ، وأكثر تبذيراً في ملذاته . عاد ووعد ثم أخلف ما وعد ؛ وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا عليه بانتخاب مجلس في كل ولاية يجدد كل سنة لمشاركة الوالي في أعماله ، وبذل النصيح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشَّبَح الخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزائنه الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة في آخر أيام السلطان عبد المجيد ٢٥ مليون ليرة ، فبلغت بعد ١٢ سنة — بفضل عبد العزيز — ٢٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟ ، يظهر أن لا أمل في الإصلاح مع وجود « عبد العزيز » ، بل لا أمل حتى لو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين للمحاكم والنظم للمدارس ، فقد جر بناه فرأيناه يباطئ للعاصفة حتى تمر ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ، ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيشة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحككة لإنزاله عن عرشه ؛ ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفي هذا خطره ،

ولكن قد تعلمتُ في جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات . فإذا تمت الأمور وعزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن — يوم توليته — الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مدين لعرشه بالدستور فاحترمه ، وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير على الأمة ، وسرنا في الطريق الذي سارت فيه الأمم الحية ، نأخذ محاسنهم ، وتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور مكفول ، فلنسر على بركة الله .

هكذا فكر مدحت ، وهو يشرف على الإصلاح في مزرعته ، والقووس تضرب في الأرض ، والنواعير تبكي بدموع غزار .

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً ، فها هو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سثموا هذه الحال ، ويتفق معه في الرأي حسين عوني باشا ( سر عسكر الدولة ) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز في يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراي طوله بعبجة ، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل ، فاستخف بهذا الخبر ، فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراي ، ووضعوه في قصر فخم ومعه والدته وثلثمائة أتى ، بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٢٠٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار ( حامل طبليات الطعام ) و ٦٠٠ «قواربي» وأمثالهم من الخدم ، وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التي حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وجد السلطان مقتولاً ، فقيل إنه اعتدى عليه بالقتل ، ويرى الأكترون ، ويقرر جمع من الأطباء ، ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته العزة فقطع شرياناً من ذراعه بمقراض<sup>(١)</sup> فمات .

(١) مقراض : مقص .

ومهما كان فقد بويج السلطان مراد فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ؛ فوُلِّيَ السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر ، وحمل « مدحت » عبء هذه الأحداث الفظيعة والرَّبْكَة الشنيعة ؛ وهو في أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوربة ونظمها ويختار أنسبها .

وكان في ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوربية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوربة يصلح لها ؛ وفي ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوربة ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها .

» فضلا عن ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات في دولتنا ؛ فالقانون الذي يوافق ولايات حلب وسورية وبغداد لا يوافق ولايات بروسة وأزمير وأدرنة ؛ وقد يكون القانون في بعض الولايات عدلا ، وفي بعضها ظلماً ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« وإن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات قد استعملها الأفرنج فأفادتهم بسبب رقي الأهالي ومدنيتهم ؛ فقانون الأراضي مثلاً يقضى علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضي بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشاً في الشهر ، فالأفرنج يعينون لكل قرية لجاناً ومهندسين يمسحون الأراضي ويقدرن الضرائب ، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضيها .

» فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمه الأمور إليهم بالتدريج . . . كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ ففي أوربة للعالية اختصاصها ، وللحرية اختصاصها ، وكذلك للداخلية والعدل ، أما عندنا فالأمور كلها منوطة<sup>(١)</sup> بالوالي .

(١) منوطة : منطقة .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذي يتلخص في اختيار خير النظم الأوربية وأرقها لحالة الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجاً ، كلما ألفت خطوة انتقل بها إلى ما بعدها .

ويُعد القانون الأساسي للدولة ويرتب نظام مجلس المبعوثان ، فأتى السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله معداً ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والتوسس على اشتراك جميع الرعايا في شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظّم للدولة مجلسان : مجلس يُنتخب من الأهالي ويسمى بمجلس المبعوثان ، ومجلس تُعين الدولة أعضائه ويسمى مجلس الأعيان . وتلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالاستانة في محفل عام ( ١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ ) وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيراً ، وأقيمت الأفراح والليالي للملاح . وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم والديوان العالي والمالية إلخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزراء ، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مدين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطي ، فاذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير !!

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لعله أخطأ إذ بالغ في التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عطاء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلبهم المبدأ ، فلا يرون منه إلا النواحي البراقة ، كالقنان يرى في شجرة الورد أزهارها ولا يرى أشواكها . استخف بقوة الرجعيين ،

ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفذ منها إلى الغل في أعماق صدورهم ، ولم يقدر قوة العدد الجم الذي كان يفتنى من الظلم وسيفتقر بالعدل ؛ والذي كان يُثرى من كلمة مَلَق أو تسويد سطر بوشاية ، فأصبح خائفاً من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله عن جاهه ؛ والذين كانوا يبشرون أنفسهم بمواتاة الحظ لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئاً إلا ببذل الجهد .

وشىء آخر هام فاته ، وهو أن من عاش طويلاً في ظلّ العبودية لا يتعلم سريعاً مزايا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيراً قبل أن تتوسّط ، والذي نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهي آمنة مطمئنة ؛ أما هذه الدولة فلا ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عرض مفارق بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتطّ بعض أعضائه في القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناه عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها ناثبون عنها لا غير وليسوا نائبين عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تنفق ومصالحة الدولة من حيث هي كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بله<sup>(١)</sup> قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشاناً ، وهذا راغب في وظيفة ، وهذا راغب في ترقية ، حتى بلغ الحال أن مكارياً<sup>(٢)</sup> سرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعياً والنظام جديد ، والجهل عريق ، ولا بد من فترة تمر

(١) بله : بمعنى دع ، أي فضلا عن قراءته .

(٢) المكارى : مؤجر الدواب .

حتى يفهم الناس أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولاً وولايته ثانياً ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكنهم أنى لهم بمن يصبر على سخافتهم ، ويفسح الصدر لمراتهم ، والأعداء كثيرون في الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد ؟!

وزاد الأمر سوءاً أن روسيا إذ ذاك لم يرضها هذا الحال ، فاحتجت على ذلك وتأخرت في الاعتراف بالنظام الجديد ، وابت بالبلقان فحركته ، وثارث الثورات في أنحاءه ؛ فتورة في الصرب ، وثورة في الجبل الأسود والبوسنة والمهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول ، وانتصارات عدوها تفيده ؛ والدولة فقيرة في المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة في رؤساء القواد ، فقد قتل حسين عوني باشا وغيره معه بيد أئيمة ، وروسيا تريد فصل البلغار عن الدولة ، ولكل دولة مطامع . ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية في صبر عجيب ، فنهاره في تنظيم الشؤون الداخلية ، وليله في المشاكل الخارجية ، وفي ذلك يقول : « تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هذه الحياة لي بل للأمة ، وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية ، فواجب أن أسعى في تخليصه من مخالبها » .

وفيا هو كذلك سلم إليه أحد رجال المابين كتاباً فتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فوراً من غير أن يعرج على أهله ، وذلك بعد شهرين من صدارته . فألح مدحت على رجل المابين أن يراجع السلطان في بيان السبب ؛ فناد وقال : إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تحوّل السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقع عليهما وها هذان . فتتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « إن

جاسوساً سمع ضابطاً يقول لصاحبه في أحد المقاهى إن مدحت سيكون رئيس جمهورية « فاكنتى مدحت بهذا ولم يفتح الثانى ، وقال : « إن بلادى التعيسة كريض حضره نطس<sup>(١)</sup> الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يُبَلِّ من مرضه ، فاندس عدو له فسقاه سمّاً قضى على حياته » . وأذعن للأمر وركب الباخرة « عز الدين » لساعته من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من رأى العام ، فطلعت الجرائد ومن ضمنها « الجوائب » ترمى مدحت بأفظع التهم ؛ هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة فى مشاكل خطيرة ؛ ~~والذى~~ وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة . وأظهر كثير من المعمّين ابتهاجهم ، وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية . والذى يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت الناس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشرّد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولبيادته . ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهانى بتعطيل الدستور تعطيلاً مؤقتاً ، ولكن ألا تعرف — أيها القارئ الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة ! لم يكن رأى العام حذراً فحذّر ، ولا عاقلاً فخدع ، ولا قوياً فامتّهن .

هذه الباخرة « عز الدين » تمخّر البحر لتقذف به فى ثغر من ثغور أوربة ، وقد ضاعت كل آماله ؛ فكل ما حَزَرَ<sup>(٢)</sup> من تقدير الثورة وتناجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضِيَ عليه فى لحظة ، وزال من

(١) نطس : ماهرون . (٢) حزر : مخن وقدر .

الوجود في لحظة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ، وكل ما في يده الآن غضبُ السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله ، ونجرده من ماله .

لو أن أى إنسان عادى آخر مكانه لعن الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تجنى جزاء ظلم سلاطينها ، وابتظر حتى يتشقى بمنظر الفساد يهدأركانها ، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحوها ، وأندر فلم يُصَفُوا ، فارتاحت نفسه بصدق ما تنبأ ، وحدث ما أندر .

ولكن لم يكن مدحت في شيء من هذا ، فامرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكر من جديد في وسائل إصلاح ما كان ، وعجب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن لا يُبرأ منه »

فكر سريعاً ، ووصل إلى النتيجة سريعاً ، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحسيس الجند ، والدول كلها تنتبأ بنصرتها ، فواجهه — إذن — أن يؤلّب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبين لكل منها الأضرار التي تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطةها . فهو في أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بأرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض . ويُبرق إلى اللابن يقول : « قد سمعت مدة إقامتي في عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنعف ويرفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أنى وقفت إلى ذلك بعض التوفيق » ؛ ثم يذهب إلى فيينا لهذا الغرض ويُبرق فيقول : « أنا اليوم في (فيينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعي ... وأمل إخباري بماوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيته الوحيدة ، وقد وقفتُ حياتي لتخليص الدولة من ورطتها ،

وأنا قادر على القيام بأعباء ما يُطلب مني ، ومصصلحة الوطن تضطرنني إلى ذلك .  
وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردُّ عليه بأنه ليس مفوضاً ، ولا له  
صفة رسمية يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلاً منفيًا ، فطلب من الدولة تصحيح  
موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعاً !

وأغرب ما في الأمر بعد ذلك أن زفَّ إليه « ناظر التشريفات » بشري  
ذَكَرْتَهُ بِمَحْضَرِ السُّلْطَانِ ، فسأل عنه : كيف يعيش ؟ فقال « ناظر التشريفات » :  
إنه في حالة بؤس ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقرض ؛ فظهرت رِقَّة قلب  
السُّلْطَانِ وبكى ، وقال : أرسلوا له ألف ليرة ؛ ثم يحتم الكتاب بأنه يطالب منه شكر  
السُّلْطَانِ ، وتضرعه إليه بالعمو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذلته ، مَلِيقَةٌ  
كلمته ؛ ولكن هذا الكتاب وقع من نفس مدحت الأبيَّة موقع السهم المسموم  
في القواد الجريح ، فهاج وثار ، ورد عليه فقال :

« لقد عبرتم للسُّلْطَانِ عن حالي بأنها حال بؤس و فقر وارتحال ، تستدرون  
بذلك شفقتي ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أفاق<sup>(١)</sup> ، لا رجل  
مثلي عمل ما عمل ، وتولى الصدارة بجدارة .

« وأنا كما وصفتم من أسباب عيشي وفقرى ، فقد اقتضت عشرة آلاف  
فرنك من خرسيتاكي في نابولي فنفدت ، وأنا اليوم أسعى في قرض جديد أسدَّ به  
رَمَقِي ورمق أسرتي في الآستانة ، ولكنني نخور بذلك ، فقد وُلدتُ عارى الجسد ،  
وسأمت عارى الجسد ، وأنا ابن الحاج أشرف أفندي ونعم النسب ، ومع هذا  
فلا أنتسب إلا إلى الله ، وذخيرتي أنى عاهدته ألا أقول إلا الحق ، ولو أوصلني  
إلى مثل ما ألقىه الآن من الشدائد .

(١) أفاق : متنقل في البلاد للتكسب والاعتنام .

« وما الذى فعلت من إجرام حتى أطلب العفو؟ ! لقد سعتُ في تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز ، فلما مرض سعتُ أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقروناً بإعلان الدستور ووضع خطط الإصلاح .  
« ومنذ خروجى من الآستانة وأنا أفكر فى الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك ، ولا أفكر فى نفسى ، فماذا فى هذا مما يُعْتذر منه ؟ .

لقد بلغتُ السادسة والخمسين ، ولا أمل لى فى الحياة ! فلم يتجاوز أسلافى الستين ، فأياى معدودة ، وكل رجائى أن أعيش منفرداً ، وأدعو لولّى النعم الأعظم » .  
هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعبرُ أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمتِه ورجولته وسمو نفسه .

لقد وصف « ناظر التشريفات » هذا الكتاب لما قرأه بأنه كالعروس عَطِلَتْ من حُلِيِّها ، وعَرِيَتْ من ثيابها ، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلاً؟ وفى الحق أن هناك عيوناً لا ترى الجمال الحق فى الإباء والشَّم ، وإنما ترى الجمال المتصنع فى النفاق والملق .

كان يوماً يصطاف فى الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز ، وإذا بسفير الدولة العثمانية فى إنجلترا يقابله ، ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة « كريد » . فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين . ثم عين والياً لسورية ، ثم لأزمير ، ثم كانت مأساته التى خُتِمَتْ بها حياته كما سنيناه بعد .

\*\*\*

هذا هو العمود القمى فى حياة مدحت ، وله بجانب هذا أعمال فرعية فى الولايات التى تولاها ، وهى أعمال خالدة لا تزال تُذكر من أهل البلاد التى عمل فيها بالحمد والثناء .

تقد ولي العراق ، وولى سلانيك ، وولى الشام ، وولى أزمير، وكان له في كل أولئك خطة واحدة ، يعمدُ - أولاً - إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم ، فإذا الأمن شامل والهدوء عام . ثم ينشر العدل بين الناس فيطمثنون على أنفسهم وأموالهم ؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم في أمورها ، ويجرّهم على قول الحق في صراحة ، ويعلمهم كيف يعالجون للشا كل ؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة ؛ لأن ذلك يعين على الإسراع في ضبط أمورها ؛ ثم يضع الخطط لاستغلال منابع الثروة في البلاد على خير وجه ، كل ولاية بما يناسبها ، حتى يزيد تناجها على نفقاتها ؛ ويأخذ من المال الناتج لإنشاء المدارس ونشر التعليم ، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم في بلاد فشا فيها الجهل وكادت تم فيها الأمية .

تولى العراق سنة ١٢٨٥ هـ - سنة ١٨٧٠ م في عهد السلطان عبد العزيز فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها ، ودوّخ العصاة وطاردهم في أوكارهم ، ثم أصلح أداة الحكومة ، فأقبل الزراع على زراعتهم ، والعمال والصناع على عملهم وصناعاتهم ؛ وأنشأ أول مطبعة في بغداد ، وشجّع على إنشاء جريدة سماها « الزوراء » ؛ وحث الشركات على العمل ؛ فشركة تسير البواخر بين بغداد والبصرة ، وشركة تسير الترام بين بغداد والكاظمية ؛ وقرب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة ، وبث المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية ، وأنشأ متنزهاً عامّاً في بغداد سماه « بستان الأمة » « ملّت باغجه منى » .

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجب » كنوزاً مدفونة ، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تُزَيّن بها الأضرحة والمشاهد ، قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور ، فأخرجها مدحت ، وقومها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة ؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدي بثمنها بين

النجف وإيران ( إذ كان قد اشترك في التبرع بها كثير من الفُرس ) ، فلم يوافقهُ العلماء على ذلك فبطل المشروع . كذلك من طرائفه أنه ألف مجلساً للشورى في بغداد يرجع إليه في أمور الولاية ، ولم تكن الناس تألف الجهر بالرأى والشجاعة في القول ، ولا تعدُّ لهم بجانب رأى الوالى رأياً ، فجمعهم يوماً وقال لهم : إني أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالى في زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون ؟ قالوا جميعاً موافقون ، هذا هو الرأى ، وهى الحكمة ؛ فكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم ؛ ثم جمعهم في اليوم الثانى وقال : لقد فكرت في أمر زيادة الضرائب فتراءى لى أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس ، ولكن محضراً مسرئلاً أرسل ، فإذا رأيتم هذا الرأى صواباً كتبنا آخر الخفناه به ، وبيننا الأسباب الموجبة لتقضه ، فقالوا : نعم الرأى ما رأيت ؛ ووقعوا على الثانى كما وقعوا على الأول . فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيد ، وقال : والله ما أرسلته ولكن أردت أن أختبركم ، فاقيمة المجلس إذا رجعت دائماً إلى رأى وحده ؟ ثم أتى عليهم درساً قاسياً في الحرية وفوائدها ، والشخصية وتكوينها ، والاستقلال فى الرأى ومزاياه .

وكانت ولايته للشام أصعب ، فقد تولاهما فى العهد الحميدى بعد موته من عبد العزيز واتهامه بالجمهورية ، وعداء السلطان والمابين والوزراء له . كلهم يتربص به الدوائر . ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق ، فهذا مشكله بدوهُ وعشائره ، وعلاقته بإيران ونحو ذلك ؛ أما مشاكل الشام فأخطر : أمور لبنان تتصل بفرنسا ، وأمور الدرور تتصل بإنجلترا ؛ ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس ، وغير ذلك . فكان أول ما لفت نظره ما ذكر من « أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل . . . ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدماً ملحوساً ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث

القرآن ، فكنتُ أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا .  
فشكل الجمعيات ، وجمع الإعانات ، وفتح المدارس ، وأصلح المساجد وجعلها  
مدارس ، ووضع عقوبة لوليّ أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة ،  
واستعان بأموال الأوقاف في أمور التعليم ، وتأسست في عهده « جمعية المقاصد  
الخيرية » وانتشرت شعبها في البلاد .

ولما حاول الإصلاح الاقتصادي والإداري اصطدم بالدول ؛ فكانت فرنسا  
صاحبة امتياز لبنان ، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف  
ليرة من إيراد جمارك الشام ، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فنضبت  
فرنسا ؛ وهكذا وهكذا من مشاكل ، والدسائس مُحكَّ حوله ، وتشاع الإشاعات  
بأنه يريد الاستقلال بسورية ، ويُستدل على ذلك بأن هاتفاً هتف أمامه « فليحي  
مدحت باشا » وأن كاتباً كتب « الخديو مدحت » . فلم يتمكن من الإصلاح  
في الشام كما تمكن منه في العراق ، بسبب ما لاقى من العناء في الداخل والخارج .  
فيا لله للمصلحين !

وأخيراً نقل إلى أزميز ، فلم يطل بها مقامه حتى كانت المأساة .

فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من  
جديد ، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه . وبلغ  
مدحت وهو في أزميز أنه يُراد القبض عليه والتحقيق معه ، وكتب إليه صديق له :  
« فاخرج إنى لك من الناصحين » . وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوربيين  
ركوب باخرة معدة وسفره إلى الخارج فرفض وقال : « كيف أرتكب الفرار للجريمة  
لا نصيب لها من الصحة ؟ » .

وبينا هو نائم في داره إذا بالجنود تحيط به ، ويُقبض عليه ويرسل إلى الأستانة  
لحاكته بتهمة الاشتراك في قتل عبد العزيز .

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد ، وهو لا يأمنُ جانب مدحت ،  
ومن لَفَّ لَفَّهُ ، ويخشى جِدًّا الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز ؛  
وبلغت به الخشية حد الهوس ، فكل قوَى الملكة من مال ورجال وسمع  
وبصر مُسَخَّرَةٌ للمحافظة على شخصه ، ومراقبة مدحت وأمثاله ، لأن من قدر  
على البدء كان أقدر على الإعادة . وأخيراً اهتدى هو وأعوانه - للقضاء  
على مدحت وأصحابه - إلى هذه التَّهْمَةِ ، فدُبِّرَت محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ،  
ورسّمت خُطَّة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام . فتوسط  
الإنجليز وبعض سفراء الدول فاستبدل بالإعدام النفي ، ووضعوا في باخرة سارت  
بهم إلى جُدَّة ومنها إلى الطائف . وأهينوا من يوم خروجهم من الآستانة بالتضييق  
عليهم في ماكلهم وملبسهم ومنامهم ؛ وسجنوا في قلعة الطائف ثلاث سنين ،  
وأجرى عليهم العذاب ألواناً ؛ وكلمهم عليهم زمن وهم أحياء زادهم تضييقاً  
حتى يموتوا ؛ ومن اشتد من الضباط عليهم رُتَى ، ومن أخذته الشفقة عليهم أبعد .  
ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالاً يقيتات به ، ويبذل كثيراً  
من الخيل في إيصالها إليهم ، فإذا أرسلوا مالاً لم يصل إليه . وثمانية من سادة  
القوم منهم مدحت يعيشون على سخن من الحساء<sup>(١)</sup> مصنوع من الماء وورق  
القمح في الصباح ، ومثله في المساء ، يريدون بذلك أن يميتوهم جوعاً ولكنهم  
لا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعاً فقرروا أن يسموهم ، ولكن  
مدحت وحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعتبهم الخيل أوغروا بمخفق مدحت فمخفق . وكان آخر ما كتب كتاب  
إلى أهله جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن . »

فقد أخذوا منا الأقلام والمداد والورق ، وضيقوا علينا الخنساقي ، وقصدوا

(١) الحساء : ما يحسى ، أى : يشرب .

تسمينا واحداً بعد واحد ، ولكن ظهرت نيتهم .  
ولا بد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي  
فلا تحزنوا . وأنا أرجو من الله المغفرة قدمت فداء الوطن ، وأستودعكم الخالق  
الباقى .»

\*\*\*

قضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعى ، يختار من المدنية الحديثة  
أحسن ما وصلت إليه في تنظيم الحكم على أساس الشورى التى تتفق وتعاليم  
الإسلام ، ويأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد ،  
ويراعى في ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الامتصاص ، فيعجل ما أمكن ،  
ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويمدّل ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه ،  
ويلتذ من العذاب يصيبه في هذه السبيل ، لأنه ربط الإصلاح بمقيدته الدينية ؛  
فالدين في نظره ليس صلاة وصوماً فقط ، ولكنه مع ذلك عمل الخير لشعبه ،  
ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها وتثور على من يقف  
عقبة في سبيل تقدمها — ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئناً مستبشراً وهو في منغاه ،  
يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة ، ويقول لأهله في بعض كتبه : إني أقرأ القرآن  
وأستعيد حفظه ، وأستعذب تكرار آية « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن  
يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدّها أكبر عزاء لى ، وأهزأ بما أسمع من هجاء وافتراء ،  
فقد سلّمت كل أمورى لربى . إن الحياة محدودة وهى كالعوبة ، ومحنّتنا يكافئنا  
عليها ربنا ، ولنا أسوة فى الأنبياء والأولياء الذين قتلوا أو سجنوا فصبروا على  
ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوّن بعض مذكراته .

\*\*\*

وقد خدمت أفكاره شناعة وفاته ، أكثر مما خدمها جهاده في حياته ، فقد أَلِمَت النفوس الخيرة مما أصابه المأْمُضُ ، وتأججت النار في أفئدتهم وأفئدة من يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما التهمت النيران التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبل عبد العزيز؛ بل لعلها أيضاً هي التي التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

\*\*\*

والآن ننتقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال الدين الأفغاني .